

بلاغة البيان النبوي / الأنساق والخصائص

الدكتورة: فاطمة الزهراء نهمار

جامعة البليدة- 2 -

الملخص :

تتناول هذه الدراسة جانباً من جوانب تميّز الرسول صلى الله عليه وسلم عن الخلق ألا وهو : بلاغة بيانه النبوي، فهو يُعد أفصح ناطق بالضاد وأعرب العرب وأبلغهم بيانا وخطاباً، بلغ من البيان الإنساني أعلى مراتبه لا يبلغ شأوه أحد، فهو يتبوأ المرتبة الثانية بعد القرآن الكريم، للبلاغة النبوية نسق خاص متميّز يعجز عن بلوغه أفصح الفصحاء وأبلغ البلغاء .

فما نظرة القرآن الكريم والصحابة رضوان الله عليهم إلى بيانه النبوي؟ وما الذي يميّز البلاغة النبوية عن كلام فصحاء العرب وبلغائها؟ وما نسقها؟ وما خصائصه؟
الكلمات المفتاحية: البيان النبوي البلاغة النبوية النسق الخصائص

Abstract :

This article deals with aspects of the Prophet (peace and blessings of Allaah be upon him) distinguished from the creation: the eloquence of his prophetic writings. He is the most outspoken critic of the religion. The Arabs expressed and conveyed to them a statement and a speech. He reached the highest level of the human statement. , The prophetic eloquence distinctive special format can not reach the most explicit and the Balchua Balalgua.

What is the view of the Quran and the Companions, may God be pleased with them, to his Prophet's statement? What distinguishes the prophetic rhetoric from the words of the Arabs and the Bulgarians? And what format? What are its characteristics?

The key words : prophetic statement ; prophetic rhetoric ; layout ; characteristics

مقدمة :

سموّ البيان النبوي ناتج عن سمّوه صلى الله عليه وسلم، وعلوّ مكانته ناتج عن عظّمته صلى الله عليه وسلم، فمحمّد عليه الصلاة والسلام يمثّل الكمال المطلق في التكوين الإنساني والعلمي والروحاني والخلقي، فهو المثل الكامل في شرف نسبه ، وفي كرم أسمائه، وفي جمال خلّقه ودقّة تصويره، وفي قوة عقله وجِدّة ذكائه، وفي استقامة فِطرته، وفي فصاحة لسانه، وفي بلاغة بيانه، وفي وجدانه، وفي شعوره، وفي نفسيته، وفي تعبّده، وفي شريعته، يضاف إلى ذلك أنّ الله تعالى تعبّده منذ الصغر بالتربية المثلى والتأديب السامي¹ وقد رُوِيَ عنه عليه الصلاة والسلام: "أَدَّبَنِي رَبِّي فَأَحْسَنَ تَأْدِيبِي"² كما أحاطته العناية الإلهية الربانية لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ (المائدة: 67).

سأتطرق في هذه الدراسة إلى جانب من جوانب تميّزه صلى الله عليه وسلم عن الخلق ألا وهو: بلاغة بيانه، فما نظرة القرآن الكريم والصحابة رضوان الله عليهم إليها؟ وما الذي يميّز البلاغة النبوية عن كلام فصحاء العرب وبلغائها؟ وما نسقها؟ وما خصائصه؟ لقد تحدّث القرآن الكريم في نصوص عديدة عن سمّو البيان النبوي وعلوّ مكانته، إذ وصفه بالقول البليغ في قوله تعالى: ﴿فَأَعْرَضَ عَنْهُمْ وَعِظُهُمْ وَقُلٌّ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ (النساء: 63)، فهذه الآية هي "شهادة الله لرسوله صلى الله عليه وسلم بغاية القدرة على الكلام البليغ، والبيان الناجع الأثر في أعماق النفوس، فقد أمره الله تعالى أن يعظ هؤلاء المنافقين ليرتدعوا عن نفاقهم، وأن يقول لهم ﴿فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ والكلام يختلف تأثيره باختلاف أفهام المخاطبين، وهذه فئة مريضة معقدة الأساس، يحتاج إفهامها والتأثير فيها إلى قوة أسلوب وبلاغة بيان فوق غيرهم من الناس، فكان أمره صلى الله عليه وسلم بهذا الأمر شهادة له بغاية القدرة على الكلام البليغ، والأسلوب العميق الأثر في النفوس، مع الحكمة البالغة"³.

وشهد ذلك أيضا صحابته رضوان الله عليهم وهم جيل فصاحة وبيان، وهم الذين تذوقوا إعجاز القرآن الكريم وخضعوا لبيانه المعجز، فهذا عرياض بن سارية " قَالَ: وَعَظَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا بَعْدَ صَلَاةِ الْغَدَاةِ مَوْعِظَةً بَلِيغَةً ذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ وَوَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ "⁴.

النبى عليه الصلاة والسلام أفصح العرب و أبلغهم بيانا وخطابا، بلغ من البيان الإنساني أعلى مراتبه لا يبلغ شأوه أحد، فهو يتبوأ المرتبة الثانية بعد القرآن الكريم.

وصف الجاحظ (ت255هـ) أسلوب كلامه فقال: " وهو الكلام الذي قلَّ عددُ حروفه وكثُرَ عددُ معانيه، وجلَّ عن الصنعة، ونَزَّه عن التكلّف... فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة، ولم يتكلم إلا بكلام قد حَفَّ بالعصمة، وشيّد بالتأييد، وبُسِّر بالتوفيق. وهو الكلام الذي ألقى الله عليه المحبة، وغشّاه بالقبول وجمع له بين المهابة والحلاوة، وبين حسن الأفهام، وقلة عدد الكلام، مع استغنائه عن إعادته، وقلة حاجة السامع إلى معاودته. لم تسقط له كلمة، ولا زلّت به قدم، ولا بارت له حجة، ولم يقم له خصم، ولا أفحمه خطيب، بل يبذلُّ الخطب الطوال بالكلام القصار، ولا يلتمس إسكات الخصم إلا بما يعرفه الخصم، ولا يحتج إلا بالصدق... ثم لم يسمع الناس بكلام قطّ أعمّ نفعاً، ولا أقصد لفظاً، ولا أعدل وزناً، ولا أجمل مذهباً، ولا أكرم مطلباً، ولا أحسن موقعا، ولا أسهل مخرجا، ولا أفصح معنى، ولا أبين في فحوى، من كلامه صلى الله عليه وسلّم كثيرا"⁵

تحدّث القاضي عياض بن موسى اليحصبي السبتي (ت544هـ) في فصاحته وبلاغته قائلاً: "وأما فصاحة اللسان وبلاغة القول، فقد كان صلى الله تعالى عليه وسلم من ذلك بالمحل الأفضل، والموضع الذي لا يجهل، سلامة طبع، وبراعة منزع، وإيجاز مقطع، ونصاعة لفظ، وجزالة قول، وصحة معان، وقلة تكلف، أوتى جوامع الكلم، وخُصَّ ببدايع الحكم، وعُلم ألسنة العرب، فكان يخاطب كلّ أمة بلسانها، ويحاورها بلغتها، ويبارها في منزع بلاغتها، حتّى كان كثيرٌ من أصحابه يسألونه في موطن عن شرح كلامه وتفسير قوله "⁶

يرى مصطفى صادق الرافعي أنّ للبلاغة النبوية نسقٌ خاصٌّ متميّز يعجز عن بلوغها فصحاء العرب وبلغاؤها، فهو يجمع بين الخالص من سرّ اللغة والبيان والحكمة ويشرح ذلك ويقول: "أما اللغة فهي لغة الواضع بالفطرة القوية المستحكمة، والمنصرف معها بالإحاطة والاستيعاب، وأما البيان فبيان أفصح الناس نشأة، وأقواهم مذهباً، وأبلغهم من الذكاء والإلهام، وأما الحكمة فتلك حكمة النبوة، وتبصير الوحي وتأديب الله، وأمر في الإنسان من فوق الإنسانية."⁷

وله موضع آخر يفصّل فيه الكلام النبوي فيقول: "إذا نظرت فيما صحّ نقله من كلام النبي - صلى الله عليه وسلم - على جهة الصناعتين اللغوية والبيانية، رأيته في الأولى مُسدّد اللفظ مُحكمّ الوضع جزل التركيب. متناسب الأجزاء في تأليف الكلمات: فخَمّ الجملة واضح الصلة بين اللفظ ومعناه واللفظ وضربه في التآليف والنسق، ثم لا ترى فيه حرفاً مضطرباً؛ ولا لفظة مستدعاة لمعناها أو مستكرهة عليه؛ ولا كلمة غيرها أتمّ منها أداة

للمعنى وتأتياً لسره في الاستعمال؛ ورأيته في الثانية حسن المعرض بين الجملة، واضح التفضيل، ظاهر الحدود جيد الرصف، متمكن المعنى؛ واسع الحيلة في تصريفه، بديع الإشارة، غريب اللمحة، ناصع البيان " ⁸.

بعدها يضيف قائلاً : " فإذا أنت أضفت إليها ما هناك، من سمو المعنى؛ وفصل الخطاب، وحكمة القول، ودنو المأخذ، وإصابة السر، وفصل التصرف في كل طبقة من الكلام، وما يلتحق بهذه وأمثالها من مذهبه - صلى الله عليه وسلم - في الإفصاح، ومنحاه في التعبير، مما حُصّ به دون الفصحاء، وكان له خاصّة، من عظمة النفس، وكمال العقل، وثقوب الذهن ومن المنزعة الجيدة، واللسان المتمكن - رأيت من جملة ذلك نسقاً في البلاغة قلّما يتهيا في مُثول أغراضه وتساق معانيه لبليغ من البلغاء، إذ يجمع الخالص من سرّ اللغة ومن البيان ومن الحكمة - بعضها إلى بعض " ⁹.

لنسق البلاغة النبوية خصائص متميزة يمكن جعلها فيما يلي :
مجيء اللفظ سهلاً فيه جمال طبعي ، كما أنّ الألفاظ متناسقة فيما بينها تتميز بالإيجاز وإحكام المعنى وجمالها كجمال الطبيعة .

البلاغة النبوية لا تعلق على العقول الفطرية فهي سهلة الإدراك مع ما تحمله من معان جليلة وعميقة وقوية النفوذ في النفوس.

كلامه عليه الصلاة والسلام من جوامع الكلم ، فهو قليل اللفظ كثير المعنى بعيد المرمى .
مخاطبة العقل والوجدان من غير استكراه للألفاظ أو تكلف في المعاني .
ابتعاد كلامه عن الصناعة البديعية لأنّه بديع في ذاته، و أحياناً يكون فيه بعض السجع ولكنّه غير مقصود، بل هو من أجل إحكام القول.

أحياناً كلامه القصصي يعتمد على الأسلوب التصويري، تُنطق فيه حقائق القصة في كلام مرسل سهل، يفهمه كلّ مستمع أو قارئ ، ويدرك معاني هدفها الصادق دون إسراف في اللفظ، ولا نقص في الأداء ¹⁰.

" هذا وإن إحكام القول لبليغ في الأخلاق والمعاهدات التي عقدها النبي عليه الصلاة والسلام أعلى البلاغة، فهو يعقد المعاهدات، لا يترك فيها حقاً إلا سجله في عبارات واضحة مانعة من الجهالة التي تفضي إلى نزاع في فهمها، ولا يترك فيها واجباً عليه إلا دونه في عبارات صريحة لا التواء فيها ولا تحيف، بل هي صريحة كاملة الشروط، لأن مقاطع الحقوق عند الشروط " ¹¹.

يرى عباس محمود العقاد أنّ السمة الغالبة على أسلوب النبي صلى الله عليه وسلم في كلامه المحمود بين أيدينا هي سمة الإبلاغ وأقوى ما فيها أنّه أوتي جوامع الكلم¹² ، ويعرفها قائلا : " اجتماع المعاني الكبار في الكلمات القصار، بل اجتماع العلوم الوافية في بضع كلمات، وقد يبسطها الشارحون في مجلدات " ¹³.

وقد جاء شرح معناها في حديث أبي هريرة رضي الله عنه إذ قال : " سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: «بُعِثْتُ بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ، وَبَيْنَا أَنَا نَائِمٌ أُتِيتُ بِمَفَاتِيحِ خَزَائِنِ الْأَرْضِ فَوُضِعَتْ فِي يَدِي» قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ: " وَبَلَّغَنِي أَنَّ جَوَامِعَ الْكَلِمِ: أَنَّ اللَّهَ يَجْمَعُ الْأُمُورَ الْكَثِيرَةَ، الَّتِي كَانَتْ تُكْتَبُ فِي الْكُتُبِ قَبْلَهُ، فِي الْأَمْرِ الْوَاحِدِ، وَالْأَمْرَيْنِ، أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ " ¹⁴.

حدّد محمد الصالح الصديق معناها قائلا : " المراد بجوامع الكلم القرآن الكريم سمي به لإيجازه واحتوائه على المعاني الكثيرة، والأسرار الدقيقة، والإشارات اللطيفة، ولاشتماله أيضا على ما جمعته الكتب السماوية من العلوم السنية، والمعاني الأخبار... وكلام الرسول أيضا جوامع، قليلة اللفظ، كثيرة المعنى، بعيدة المرمى، صادقة لا تحمل الصدق والكذب " ¹⁵ مدعما بقوله تعالى : ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (3) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (4) ﴾ (النجم: 3 و4) .

وقد مثل للأحاديث النبوية الدالة على جوامع الكلم في كتابه " جوامع الكلم النبوية " ، أذكر منها على سبيل التمثيل لا الحصر :

- " بُعِثْتُ بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ " رواه البخاري ومسلم
- " الصومُ جُنَّةٌ " رواه البخاري
- " الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبَنِيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا " أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي عن أبي موسى
- " أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيْمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا " أخرجه الترمذي وأحمد وابن حبان
- " أَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ أَدْوَمُهَا وَإِنْ قُلَّ " أخرجه البخاري ومسلم
- " مِثْلُ الْقَلْبِ مِثْلُ الرِّيشَةِ تَقْلِبُهَا الرِّيحُ بِفَلَاةٍ " رواه ابن ماجة عن أبي موسى الأشعري
- " مَنْ شَابَ شَيْبَةً فِي الْإِسْلَامِ كَانَتْ لَهُ نُورًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ " أخرجه الترمذي
- " يُبْعَثُ كُلُّ عَبْدٍ عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ " رواه مسلم عن جابر
- " أَدِ الْأَمَانَةَ إِلَى مَنْ اتَّيَمَنَكَ، وَلَا تَخُنْ مَنْ خَانَكَ " أخرجه جمع من الأئمة الكبار كآتي داود والترمذي و الدارقطني والطبراني والبيهقي وغيرهم

- " خَيْرُ الصَّدَاقِ أَيْسَرُهُ " أخرجه أبو داود وصححه الحاكم
- " إِيَّاكَ وَكُلُّ أَمْرٍ يُعْتَذَرُ مِنْهُ " رواه الديلمي في مسند الفردوس وسنده حسن والحاكم
- " الصَّمْتُ حِكْمَةٌ وَقَلِيلٌ فَاعْلُهُ " أخرجه العسكري عن أبي الدرداء
- " أَفْلَحَ مَنْ رَزَقَ لَبًّا " أخرجه البخاري والبيهقي
- " مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ " أخرجه أبو داود وصححه ابن حبان
- " مَا عَالَ مِنْ اقْتَصَدَ " رواه أحمد عن ابن مسعود، ورواه الخطيب عن أنس، والطبراني والبيهقي عن ابن عمر
- " أَعْطَوْا الْأَجِيرَ أَجْرَهُ قَبْلَ أَنْ يَجِفَّ عِرْقُهُ " رواه ابن ماجه
- العلماء أمناء أمتي " أخرجه الديلمي
- " الإسلام يعلو ولا يُعلى " أخرجه الدارقطني
- ولمصطفى صادق الرافعي أيضا تمثيل عن جوامع الكلم النبوية إذ شرحها شرحا بلاغيا وبيانيا أذكر حديثين على سبيل التمثيل فيقول: " وقوله في صفة الحرب يوم حنين: " الآن حَمِي الوطيس " والوطيس: هو التنور مجتمع النار والوقود، فمهما كانت صفة الحرب، فإن هذه الكلمة بكل ما يقال في صفتها، وكأنما هي نار مشبوبة من البلاغة تأكل الكلام أكلا، وكأنما هي تمثل لك دماء نارية أو ناراً دموية!
- وقوله في حديث الفتنة: هَذَنَ عَلَى دَخْنٍ، والهدنة: الصلح والمودعة والدخن: تغير الطعام إذا أصابه الدخان في حال طبخه فأفسد طعمه. وهذه العبارة لا يعدلها كلام في معناها، فإن فيها لوناً من التصوير البياني لو أذيت له اللغة كلها ما وقت به، وذلك أن الصلح إنما يكون مودعة وليناً؛ وانصرافاً عن الحرب، وكفّاً عن الأذى؛ وهذه كلها من عواطف القلوب الرحيمة فإذا بني الصلح على فساد، وكان لعلّة من العلل، غلب ذلك على القلوب فأفسدها، حتى لا يسترح غيره من أفعالها، كما يغلب الدخن على الطعام، فلا يجد أكله إلا رائحة هذا الدخان، والطعام من بعد ذلك مشوب مفسد " ¹⁶.
- بعدها يواصل الشرح فيقول: " ثمّ معنى ثالث، وهو النكتة التي من أجلها اختيرت هذه اللفظة بعينها، وكانت سرّ البيان في العبارة كلّها، وبها فضلت كلّ عبارة تكون في هذا المعنى وذلك أنّ الصلح لا يكون إلاّ أن تطفأ الحرب. فهذه حربٌ قد طفئت نارها بما سوف يكون فيها ناراً أخرى. كما يلقي الحطب الرطب على النار تخبو به قليلاً، ثمّ يستوقد فيستعر فإذا هي نار تلظى، وما كان فوقه الدخان فإنّ النار ولا جرم من تحته، وهذا كله تصوير

لدقائق المعنى كما ترى، حتى ليس في الهدنة التي تلك صفتها معنى من المعاني يمكن أن يتصور في العقل إلا وجدت اللون البياني يصوره في تلك اللفظة لفظة " الدّخْن " .¹⁷

وخلاصة القول فإنّه يمكن حصر النتائج المتوصّل إليها فيما يلي :

النبي عليه الصلاة والسلام أبلغ العرب بيانا وخطابا ، فهو يتبوأ المرتبة الثانية بعد القرآن الكريم .

للبلاغة النبوية نسقٌ خاصٌ متميّز يعجز عن بلوغها فصحاء العرب وبلغاؤها، فهو يجمع بين الخالص من سرّ اللغة ومن البيان ومن الحكمة.

السمة الغالبة على أسلوب النبي صلى الله عليه وسلم في كلامه هي سمة الإبلاغ وأقوى ما فيها أنّه أوتي جوامع الكلم .

يُقصد بجوامع الكلم القرآن الكريم وسي بذلك لإيجازه واحتوائه على المعاني الكثيرة، والأسرار الدقيقة، والإشارات اللطيفة، ولاشتماله أيضا على ما جمعته الكتب السماوية من العلوم السنية، والمعاني والأخبار وغيرها ، وكلام الرسول من الجوامع أيضا ، فهو قليل اللفظ كثير المعنى بعيد المرمى .

هوامش واحالات الدراسة :

1 ينظر: أبو زهرة محمد بن محمد : خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم، دار الفكر العربي، القاهرة، ج1، 1425هـ ، ص161

2 السيوطي جلال الدين: جامع الأحاديث، ج2، دت، باب الهمزة مع الدال ، ص88

3 عتر نور الدين : في ظلال الحديث النبوي، دار الهدى، الجزائر، ص8

4 صححه الترمذي وحسنه ، الترمذي: سنن الترمذي، تح أحمد محمد شاكر، شركة مصطفى البابي، مصر، ط2 ، ج5 ، 1395هـ و1975 ، باب ما جاء في السنة واجتناب البدع، رقم:2676 ، ص44

5 الجاحظ : البيان والتبيين، دار مكتبة الهلال ، بيروت، ج2، 1423هـ، ص13 و14

6 أبو زهرة محمد بن محمد : خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم، دار الفكر العربي، القاهرة، ج1، 1425هـ ، ص168

7 الرافعي مصطفى صادق : إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، دار الكتاب العربي، بيروت، 1423هـ و2003 ، ص221

8 الرافعي مصطفى صادق : إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، ص220 و221

9 المرجع السابق ، ص ص221

10 ينظر: أبو زهرة محمد بن محمد : خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم، ص 170 إلى 173

11 المرجع نفسه ، ص174

- 12 ينظر: العقاد عباس محمود : عبقرية محمد، ص78
13 المرجع نفسه ، ص86
14 البخاري : صحيح البخاري، تح محمد الناصر ناصر، دار طوق النجاة، ط1، ج9، 1422هـ، ص36
15 الصديق محمد الصالح : جوامع الكلم النبوية، دار طليطلة، ط1، 1433هـ و2011، ص7
16 الرافي مصطفى صادق : إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، ص223
17 المرجع نفسه، ص223

أهم مصادر ومراجع الدراسة :

- أبو زهرة محمد بن محمد : خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم، دار الفكر العربي، القاهرة، ج1، 1425هـ
الترمذي: سنن الترمذي، تح أحمد محمد شاكر، شركة مصطفى البابي، مصر، ط2، ج5، 1395هـ
و1975، باب ما جاء في السنة واجتناب البدع، رقم:2676
البخاري : صحيح البخاري، تح محمد الناصر ناصر، دار طوق النجاة، ط1، ج9، 1422هـ
الجاحظ : البيان والتبيين، دار مكتبة الهلال ، بيروت، ج2، 1423هـ
الرافعي مصطفى صادق : إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، دار الكتاب العربي، بيروت، 1423هـ و2003
الصديق محمد الصالح : جوامع الكلم النبوية، دار طليطلة، ط1، 1433هـ و2011
السيوطي جلال الدين: جامع الأحاديث، ج2، دت، باب الهمزة مع الدال
عتر نور الدين : في ظلال الحديث النبوي، دار الهدى، الجزائر، ص8
العقاد عباس محمود : عبقرية محمد، دار الرحاب ، الجزائر، دت